في الأدب المقارن

الأدب العامي
في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

بداوة الأمة هي عهد طفولتها : فيها يكون أدبها ساذجا على صدق عاطفته ، ضئيل الحظ من الفكر المستقيم على قوة شعوره ؛ ويشبه دخولُ الأمة طور الحضارة والثقافة بلوغَ الناشيء الحلم : إذ تنضج أفكارها وينتبه وعيها بما يحيط بها من مظاهر الكون ويزداد تأملها فيها واتصالها بها ؛ ومن ثم يزداد أثر الفكر السليم والنظر الثاقب في آدابها بجانب الشعور الحار والعاطفة المتدفقة ؛ على أنه لما كانت العاطفة عادة تقتصر على فريق من أبناء الأمة دون فريق ، فأنه يصير للأمة المتحضرة أدبان : أدب راق للخاصة وأدب عامي للدهماء ؛ ولاريب أنه كلما ازداد انتشار التعليم في الأمة كان ذلك كسبا للأدب الراقي ؛ ولم توجد بعد الأمة التي يتوحد فيها الأدبان

وتزداد الهوة بين الأدبين تدريجا بارتقاء الحضارة وازدهار الثقافة وترفُّه المجتمع : فتدخل الأدب الراقي النزعة العلمية ، وترتقي لغته وتتسع جوانبها ، وتتهذب لهجته وترق حاشيته ، ويزداد تراثه من جيل الى جيل لاستعانته بالكتابة ؛ أما الأدب العامي فيتداول بالرواية ، ولذا يظل في تجدد وتحول وزيادة ونقص ؛ تلونه المجتمعات المتعاقبة بألوانها ، وتترك فيه العصور المتوالية مياسمها ، ويظل ساذجا كأدب البداوة الأولى : يهتف بالغرائز والعواطف البسيطة ، ويتحدث بأحلام النفس الانسانية في السعادة المطلقة وميلها الدائب الى الجمال والقوة والحق والفضيلة ، ويظل على ما يشوبه من خرافة وغرارة هو الثقافة الوحيدة التي تتمتع بها الطبقة العاملة

وقد كان للعرب على عهد حضارتهم أدبان كذلك : ساعد على قيام الأدب الراقي اعتداد أشراف العرب بأدبهم القديم ، وتمسكهم بلغتهم ، وانتشار الثقافة والعلوم التي وَرَدَ مناهلها فريق من الأمة دون فريق ؛ وساعد على ظهور الأدب العامي اختلاط العرب بالأمم وفساد لغة الكلام . وصار للانجليز كذلك أدبان منذ تحضروا وتثقفوا وامتزجت اللغة الانجلوسكسونية باللاتينية ، واستخدمت في العلوم والآداب ، وتوطدت قواعدها واتسعت جوانبها وأصبحت لغة مجتمع راق . فانفصال الأدبين الخاص والعامي أحدهما عن الآخر جاء مختلف الكيفية في الأمتين : ظهر الأدب العامي في العربية بفساد اللغة الفصحى وانحطاطها ، وظهر الأدب الفصيح في الانجليزية بارتقاء اللغة العامية وارتفاعها

تختلف الأمتان في هذا ، وتختلفان أيضاً في علاقة الأدبين الفصيح والعامي في الأزمنة التالية لانفصالها : ففي العربية كانت الهوة بينهما سحيقة والاتصال يكاد يكون معدوما ، لشدة ترفع الأدب الفصيح عن صاحبه ، بل تجاهله لوجوده ؛ أما في الانجليزية فكانت المسافة بينهما أقرب ، والاتصال أوثق ؛ وظل للأدب العامي دائما للمثقفين اعتبار ، ورحب به الأدب الفصيح مراراً وخلطه بنفسه ، واقتبس أساليبه وصوره ، واصطنع مواضيعه ونغماته ، فأفاد بذلك فائدة كبرى

فالأدبان الفصيح والعامي وإن اختلفا تهذُّبَ لغة واستقامةَ تفكير وعمق نظرة وتنوُّع أشكال ، يستقيان من معين واحد ، هو النفس الانسانية ، بميولها وأحلامها وآمالها . وإذا امتاز أولهما بصفات هي وليدة الحضارة العالية والمجتمع الراقي والعلم المنظم ، فأن الثاني يمتاز بصفات الصدق والبساطة والقرب من الطبيعة التي هي مرجع كل فن ؛ والأدب الفصيح عُرضة من آن الى آن لغلبة اللفظ فيه على المعنى ورجاحة الزخرف على الجوهر ، وظهور التأنق والتحذلق على الشعور الصحيح والطبع المرسل ، فهو بحاجة دائما الى العودة الى الطبيعة ، وخير سبيل له اليها الأدب العامي ، إذا نقاه من أوشابه واستخلص أجود عناصره

ظل للأدب العامي في انجلترا دائماً اعتبار ، وظل كبار الأدباء مهما سمت ثقافتهم واتسعت نظرتهم إلى الحياة على علم به : فشكسبير وسبنسر وملتون طالما استقوا من معينه قصصاً سائغاً ضمنوه آثارهم ، والتقطوا من كنوزه ألفاظاً معبرة ألحقوها باللغة الشعرية الراقية فصارت من بنيتها ؛ وأتيح للأغاني الشعبية من حين إلى حين أفراد من خاصة المثقفين عنوا بجمع ما وصل إلى عهودهم منها ، فكانت تلك المجموعات نصب أعين الشعراء ،

يتخذون منها مواضيع لأشعارهم أو يحاكونها في الأسلوب والنظم

وكان لتلك الأغاني فضل عظيم في بعث النهضة الرومانسية في أوائل القرن التاسع عشر ، بعد أن اختنق الشــعر في جو المدينة وأثقلتــه قيود الألفاظ والتقاليد ؛ فقد انصرف جمهور المتأدبين عن ذلك الضرب المتكلف من النظم إلى مجموعات الأشعار الشــعبية التي توفر على جمعها ونشرها إذ ذاك نفر من الأدباء ، وضمنوها ما وصل اليهم من مقطوعات منذ عهد القرون الوسطى فنازلاً ، بعضها يدور حول السحر والطلاسم ، وبعضها من نسج الخرافة ، وبعضها مزيج من الخرافة والتاريخ ، وكلها مملوءة بحب الطبيعة ووصف مناظرها ؛ وكان لاسكتلندا وأدبائها فضل كبير في تلك الحركة ؛ فقد أخذ الكثير من الأغاني من أدبها العامي ، وقام أدباؤها بالجانب الأكبر من ذلك الجمع والنشر ، وقاموا بالرحلات بين أريافها وحزونها ينقلون عن الزراع والرعاة أغانيهم وأسمارهم

ومن الاسكتلنديين أيضاً كان الرعيــل الأول من الشعراء الذين نظموا أشعارهم في التغني بالطبيعة وحيــاة البسطاء من الفلاحين والرعاة وحياة الفروسـية الغابرة ؛ ومن أولئك ألان رمزي وروبرت برنز ووالترسكوت . وقد كان ثاني هؤلاء فلاحاً قحاً ، تعبر في شعره عن حياة فلاحي اسكتلنـــدا وتقاليدهم وأفراحهم وأتراحهم ؛ أما الثالث فقد كانــ على نقيض ذلك أرستقراطياً سليــل أسرة تمتُّ إلى فرسان العصور الوسطى ، فاحتفى شديد الاحتفاء بالأغاني الراجعة إلى تلك العصور ، وازداد شغفاً بالأغاني الشعبية حين اطلع على ما ترجم منها عن الألمانية ، فطاف في اسكتلندا طلباً للاستزادة ، وجعل محصوله من كل ذلك مادة لأشعاره وقصصه التي رفعته في زمنه وبعده إلى مصاف كبار الأدباء ، وأكسبته شهرة عظيمة في القارة الأوربية

وفي هــذا الجو المملوء بحب الطبيعة والبساطة والشعور الصادق ، نشأ وردزورث وكولردج ثم شلي وكيتس ، وهــذه الروح الخافقة المأخوذة عن الأغاني الشعبية هي التي أوحت اليهم أشعارهم البـــديعة وجعلتهم ينهجون بالشعر نهجهم الطريف . وكان وردزورث أحرص الجميع على اختيار المواضيع البسيطة لقصيده ، واختيار أشخاصه من بين الريفيين والدهماء ، واستعمال ألفاظهم بذاتها في شعره ؛ وقد جمع باكورة ما نظمه على ذلك النمط في كتابه « الأغاني الشـعرية » الذي أخرجه بالاشتراك مع كولردج ، وصدَّراه بمقدمة شرحا فيها المذهب الجديد المستمدة روحه من روح الأغاني والأقاصيص العامية

ووجد الأدب العــامي لنفسه مسلكا جديداً إلى الأدب الفصيح ، حين تقدمت القصة وتناولت الحياة الاجتماعية بالوصف الدقيق ، وأولعت بتصوير شتى الشخصيات من الطبقات الفقيرة والأوساط الريفية ، وتناولت معاملات تلك الطبقات والأوساط ومحاوراتها وعقلياتها بالعرض والتحليل ، وتوخت الأمانة للواقع بنقل ألفاظ القوم ومحاكاة أساليبهم في الخطاب ؛ وفي روايات هاردي تصوير لــكل ذلك دقيق لا يبارى دقة ونفاذ بصــيرة : وهكذا كسب الأدب الفصيح كسباً جديداً من الأدب العامي

أما في العربية فكان نصيب الأدب العــامي دائماً الزراية والتجاهل ؛ وكان أول ما يأخذ به المتأدب نفســه التخلص من شوائب العاميــة لفظاً ومعنى وأسلوباً ، وشر ما يوصم به لفظ أنه عامي ، أو معنى أنه سوقي ؛ وأبعد ما يفكر فيه الأديب أن يخالط العامة أو الزراع ليأخذ عنهم ما يتحدثون فيه وما يتأدبون به ، من قصص ممزوج بالخرافة ، وغناء متسم بالســذاجة ، أو يطوف في الأرض طالباً لذلك كما طاف سكوت وأمثاله في شعاب اسكتلندا ؛ إنما كان أدباء العربية يشدون الرحال إلى البادية طلباً للفصيح من الكلام والأصيل من الأساليب ، والمأثور من أقوال العرب يُتَّخذُ حجة في المناظرة ، وأنموذجاً في الانشاء ، وقد عيب على بشار قوله في جارية :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

لهــا عشر دجاجات وديك حسن الصوت

لأنه تناول موضوعا بسيطاً عامياً وتحدث في سذاجة لا تليق بالشعر الفصيح . وإنما كان الأدب العربي فيما ارتضى له أصحابه ، واســتن له نقاده ، أدب بلاط يحفل بذكر الملوك لا السوقة ، ونديم أرســتقراط يشارك في حياة العلية ويشمخ عمن دونهم ، ولا يرى في حياة الدهماء وحيا لقول ، ولا موضوعا لتفكير ، فلم يكن من شعراء العربية من يحتفي بوصف أشخاص قريته كما فعل جولد سميث في « القرية المهجورة » وصفا كله حب وحرارة ، ولا من يرثي أبناء القرية في مراقدهم الأخيرة ، وهم الذين أفنوا العمر كداً دون أن تسمع الدنيا بأسمائهم أو يصمدوا إلى المجد على أكتاف غيرهم أو دمائهم ، كما فعل جراي في مرثيته

وقد أثر عن بعض شعراء العربية كأبى نواس وأبى تمام ، أنهم كانوا يتلقفون أحياناً أقوال العامة فيصوغونها شعراً ، كالذى رواه ابن الأثير من أن أبا تمام وصل من بعض قصيده إلى قوله : « وأحسنُ من نَور يفتّقه الصِّبا » وأرتج عليه ، حتى مر بالباب سائل يقول : « من بياض عطايا كم فى سواد مطالبنا » ، فأكمل أبو تمام البيت : « بياض العطايا فى سواد المطالب » ، على أن ذلك كان نادراً ضئيل الأثر . أما الاحتفال للأدب العامى ، ومحاولة الانتفاع به ، والرغبة فى جمعه ، والعمل على تلقيح الأدب الفصيح بعناصر الحياة فيه ، فذلك كان بعيداً جداً عن أذهان أدباء العربية

لم يستفد الأدب العربى الفصيح من شقيقه العامى شيئاً ، مع أنه كان أحوج كثيراً من الأدب الأنجليزى إلى تلك الاستفادة ، بل لعل رفضه الاستفادة من أدب العامة كان من أسباب اضمحلاله وسقوطه : فقد أبى الأدب العربى إلا اعتزال أدب العامة بنفس الاصرار والشموخ اللذين اعتزل بهما آداب الأمم الأخرى ، وتعالى عليه تعاليه عليها ؛ ورأى المسعودى وابن النديم نسخاً من قصص ألف ليلة وليلة ، التى بدأت تتجمع حولها آداب العامة فاستخفا بها وحقراها ، ولم يخطر لهما أن بها مادة لعبقرية الأديب أو لقاحا للأدب ، سخرا من الأقاصيص الشعبية فى القرن الرابع الذى كانت الصنعة اللفظية فيه قد ركبت الأدب ، والتقاليد قد كبلت المنظوم والمنثور ، ولو التفت الأدباء إلى ذلك الأدب الشعبى الناشىء واستوحوه جديداً من القول ، لربما شهد الأدب العربى نهضة جديدة وإحياء كالذى شهده الأدب الانجليزى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذى يليه

والحق أن الأدب العربى العامى قد احتوى من المواضيع الأدبية والأشكال الفنية ما أعوز الأدب الفصيح ، بل إنه احتوى من ذلك على ما هو أشبه بالأدب وأنهض بوظيفته وأقرب إلى التعبير عن الشعور . والحق أن الأدب الفصيح ليس بالترجمان الصادق المستقل للمجتمع العربى ، ولا هو بالسجل الكامل لنتاج الذهن العربى وخلاصة النفس العربية فى تعاقب العصور ، والأدب العامى أصدق وأوفى منه فى كل ذلك

فالأدب العامى حافل بآثار الخيال ؛ مملوء برائع القصص ، وهو ما يعوز الأدب العربى الفصيح منثوره ومنظومه ؛ فالقصة الاجتماعية ضرب من الأدب لم يألفه أدباء العربية ، والخيال الذى أولع به الشعراء واشتهر به البحترى خيال كاذب ، إنما هو وهم ومغالطات صبيانية : من توهم أطياف أحبة لا وجود لهم ، واختراع مواقف للوداع لا طائل تحتها ؛ ولو فطن الأدباء لأخذوا بيد القصة فرفعوها من عاميتها إلى لغة الفكر المثقف والوضع المهذب ، فأضافوا بذلك إلى الأدب فناً يجد فيه متحولاً عن فنونه العتيقة

والأدب العامى حافل بضروب الأوزان والقوافى الشعرية المتداخلة ، وهى الأشكال التى رفضها الأدب الفصيح وظل متمسكا دونها بالقصيدة الموحدة القافية ، وأبعدها عن حظيرته فالجأت إلى حظيرة الأدب العامى ؛ على أن تلك الوشحات التى راجت فى الزجل دون الشعر أدل على الرقى الأدبى وأقدر على التعبير عن شتى المقاصد من القافية الموحدة ، فتلك فائدة أخرى ما كان أحرى الأدب الفصيح أن يستفيدها من الأدب العامى ؛ ولكن الأرجح أن ذيوع تلك التوشيحات فى أدب العامة زاد الأدباء صدوداً عنها فيما يحتفون به من أغراض القول

وأسباب هذا الجفاء الذى استحكم بين الأدبين الفصيح والعامى فى العربية هى : روح المحافظة التى سادت الأدب الفصيح ، والتبجيل العظيم لآثار الأقدمين ، والاعتداد الشديد بلغة الضاد التى هى لغة الكتاب المنزل والدولة ؛ وهى عوامل نماها وقواها اعتزاز العرب فى صدر الاسلام بقوميتهم وتعاليهم عمن عداهم من الشعوب ، وحرص أبناء تلك الشعوب على التشبه بهم بحذق لغتهم وتقليد أساليبهم ؛ كل ذلك جعل للفظ عند الأدباء التقديم على المعنى ، فكل قول عدم اللفظ الفصيح هو عامى سوقى حقير لاقيمة له ، وجعل لأساليب العرب الأقدمين مكانة رفيعة ، فكل قول شذ عنها ناب مستهجن ، وكل احتذاء لها مهما أرهقه التكلف وخرج به التقليد عن طور المعقول والمحسوس ، فهو مقبول معدود فى الأدب ؛ هذا إلى ماتقدمت الاشارة اليه من تعلق الأدباء بأهداب الملكية والعلية ابتغاء النوال ، مما نأى بجانبهم عن جانب العامة

فالأدب الفصيح استحال فى حيز تلك التقاليد والمراسيم إلى

قوالب متحجرة ، وأوضاع متصلبـة ، غير حر الحركة ولاسهل التجديد ولاقابل لتأثير من الخارج ، لايتأثر إلا بماضيـه ، بتراث العرب الأفحاح الذين قصدوا القصـائد ونسبوا ونخروا وهجوا وارتجلوا الخطب ؛ وتلك حال إذا صار اليها الفن جمد وبعد عن الأمانة للحياة والتصوير لحقائقها . وشبيـه بذلك ماصار اليه فن النحت وفن التصوير عند قدماء المصريين من جمود وزيغ عن الحقيقة ، حين كبلتها الأوضاع والرموز الدينية

وقد أصبـح لزاما على الأدب الفصيـح وقد كبلته التقاليد بالقيود ، وأحاطته الصناعة بالسدود ، أن يترك التعبير الصحيح عن شعور المجتمـع للادب العامى ، وذلك هو الذى تم دون أن يشعر رجاله ، ودون أن يقلعوا عن كبريائهم وترفعهم عن الشعب . فظلوا فى تقاليدهم الجامدة وبراعاتهم اللفظيـة سادرين ، وقد نما الأدب الشعبى واتسع ، وحوى من صادق المشاعر والعواطف ، وجميل المحـاورات والمناظر ، ما أعوز الأدب الفصيح ، وماقربه إلى نفوس الشعب وإلى نفوس الأمم الأخرى معا :

فقد فطن الأوربيون من عهد الحروب الصليبيـة إلى ما فى الأدب العربى من جمال وعبقرية ومتعة ، فتـداولوا أقاصيصه وأغانيه وحاكوها فى آدابهم الشـعبية وخلطوها بها ، وترجموا مجموعات منهـا إلى لغاتهم فى شتى الأزمنة ، ولم يألوها حفاوة وامتداحا ، وعرفوا فضلها فى إدخال العنصر الرومانسى فى آدابهم العالية ، وهى نفس الوظيفة التى أداها أدبهم الشعبى ؛ أما موقفهم من الأدب العربى الفصيح فكان خلاف ذلك : فأنهم كلما حاولوا دراسته والانتفاع به فى آدابهم صدهم عنه ما فيه من غرابة معان متكلفة لا تمت إلى الحياة الصحيحة ، ومن زخارف ألفاظ يحتفى بها أدباء العربية كأنها حقائق مجسمة ، فاذا ترجمت لم تعد شيئاً مذكورا ، فرجموا خائبين وعزوا تلك الغرابة إلى اختلاف عقليتى الشرق والغرب ، وما هو كذلك وإنما مرجعها ما خالط الأدب الفصيح من تقاليد جامدة شبيهة بالرموز الدينية ، بعدت به عن التعبير عن شعور النفس الانسانية ، شرقية كانت أو غربية

فالأدب العربى العامى قد احتوى من عناصـر الصدق فى الشعور ، وتصوير المجتمع ، ووثبات الخيال ما أعوز الأدب الفصيح كثيرا ، وهو مع ذلك قد لاقى الاهمال والازدراء من المثقفين وخسر الأدب الفصيح معونته فى العصور المـاضية ، وهو إن لم يكن أحرى من الأدب الفصيح بالدرس ، وأكثر منه فائدة لمؤرخ الأدب والمجتمع ، فليس دونه فى تلك الوجوه ، وهو خليق أن يدرس معه جنباً إلى جنب ، وتجمع آثاره المتخلفة من شتى العصور ، ففيها هى ذاتها متعة جليلة ، وفيها بجانب ذلك للشاعر والقصصى ما يبعث الالهام ، ويبسط مناديح التفكير والقول ، ويدنى من الطبيعة والصدق

فخرى أبو السعود

ابن خـــلدون

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

فيه عرض نقدى مستفيض لحياة المؤرخ الفيلسوف وتراثه الفكرى والاجتماعى ووصف ضاف لآثاره ومنهجه وأسلوبه ، ومقارنات نقدية بين نظرياته ونظريات علماء الاجتماع فى الغرب . يقع فى مائتى صفحة طبع دار الكتب ومجلد تجليداً حسنا

ثمنه ٨ قروش . ولمشتركى الرسالة مدة يناير تخفيض ٢٥ ٪

عدا البريد وهو قرشان للداخل وخمسة للخارج . ويطلب من مجلة الرسالة ولجنة التأليف والترجمة وجميع المكاتب الشهيرة

هيلويز الجديدة

قصة رائعة فى شكل رسائل تأليف

جان جاك روسو

ونقلها إلى العربية الأستاذ

أحمد حسن الزيات

وتنشر تباعا فى مجلة

الروايـــة

ابتداء من عددها الأول الذى يصدر فى ١٥ يناير سنة ٩٣٧